

الكتاب الثاني: "جدلية الجنون والإبداع" (الحلقة الأولى)



yehiattrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2019/08/03

السنة الثانية عشرة - العدد: 4354

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

مقدمة

تقدم هذه المداخلة مستويين من الجدل فيما يتعلق بالإبداع، الأول: الجدل بين المعرفة البدائية والمعرفة المفاهيمية، والثاني: الجدل بين المراحل الأولى (وفى النادر: التالية) من الإبداع، والجنون، ويستعمل لفظ "الجنون" عند معظم الذين يكتبون فى النقد أو الإبداع استعمالاً فضفاضاً لا يجوز، وخاصة بعد تعدد تصنيفات الذهان (الجنون) (Psychosis) إلى عشرات الأنواع، لذلك أعدد من ناحيتي أن الجنون العضوى التشريحي المباشر مستبعد فى هذه الدراسة (مثل الخرف أو الجنون الناتج عن أورام فى الدماغ..إلخ). إن ما اعتبره الجنون الأم أو الجنون الأصل (إن صح هذا التعبير) الذى يرد فى هذا العمل هو الفصام بكل مراحلها، وبالذات فى شكله النفسى Disorganized وأحياناً التدهورى Deteriorated مضافاً إليه - أحياناً- بعض أنواع الجنون الأخرى التى ليست سوى محاولة بديلة للحيلولة دون التمدادى فى النفس والتدهور بأشكال أقل إمراضية (وإن كانت أخطر أحياناً) من العملية الفصامية (2) وتحديد الجنون فى هذا السياق الحالى بأنه "الجنون النشط" يشير إلى نوع الجنون ذى الأعراض الإيجابية مثل: الهلوس والضلالات والنفس النشط، والهياج، فى مقابل الجنون المندمل أو السلبي الذى هو أقرب إلى الانسحاب والهمود والتخثر، أو لتقريب الأمر للقارئ: فإن الجنون النشط هو أقرب إلى مرحلة إضرار الحريق، أما الجنون المندمل فهو أقرب إلى الرماد المتخلف بعد الحريق، كما أن العملية الذهانية المؤدية إلى النفس الفصامى هى المراد بها الجنون أساساً، وهى العملية التى تصل فى نهايتها الأخطر إلى نوع من التدهور السلبي الذهاني أيضاً، لكنه أبعد ما يكون عما يراد به حين نستعمل لفظ الجنون فى هذه الدراسة بوجه خاص.

وهذه الدراسة تقدم الإبداع والجنون بوصفهما حالتين من "حالات الوجود"، فى مقابل "حالة العادية"، وجميعها هى حالات متوابة من خلال الايقاع الحيوى لكل فرد، بدرجات وتجليات مختلفة لتحل محل تقسيم الناس إلى مبدع، وعادى، ومجنون وتختلف العلاقة بين الإبداع والجنون: من التشابه المتطابق (قبل التميز إلى أيهما) إلى السلب أو الإبعاد أو التناقض، ثم إن تفرقة واجبة الإيضاح بين حالة الإبداع (بما فى ذلك الإبداع الحيوى= تطور الحياة ونمو الإنسان نوعياً)، وناتج الإبداع فى أعمال خارجة عن ذات المبدع فى صورة تشكيلات مسجلة خارجه.

وتنتهى المداخلة إلى ضرورة التمييز بين مستويات الإبداع وتشوّهاته، حيث بينت الفروق بين كل من الإبداع الفائق، والإبداع البديل، والإبداع الناقص (المجهض)، والإبداع المحبط (اللاإبداع=المجمد)، مع ما

أعدد من ناحيتي أن الجنون العضوى التشريحي المباشر مستبعد فى هذه الدراسة (مثل الخرف أو الجنون الناتج عن أورام فى الدماغ..إلخ)

إن ما اعتبره الجنون الأم أو الجنون الأصل (إن صح هذا التعبير) الذى يرد فى هذا العمل هو الفصام بكل مراحلها، وبالذات فى شكله النفسى Disorganized وأحياناً التدهورى Deteriorated

تحديد الجنون فى هذا السياق الحالى بأنه "الجنون النشط" يشير إلى نوع الجنون ذى الأعراض الإيجابية

الجنون المندمل أو السلبي الذى هو أقرب إلى الانسحاب والهمود والتخثر

إن الجنون النشط هو أقرب إلى مرحلة إضرار الحريق، أما الجنون المندمل فهو أقرب إلى الرماد المتخلف بعد الحريق

يقابلها من مستويات، الاضطراب العقلي.

وأخيرا: فلا مفر من التطرق بالإشارة إلى بعض مجالات التطبيق في التعامل مع الجنون إحاطة وجدلا، وتطور اللغة، ومشكلة الحدثة في الشعر خاصة، والإبداع الذاتي في التصوف مثلا، وكل ما يمكن أن نستدرج إليه في هذه المنطقة الحساسة.

- بدءا من البداية

مازالت قضية علاقة الجنون بالإبداع تمثل تحديا للوعي البشرى (وليس فقط للبحث والمعرفة) . وقد بلغ الأمر من الخلط والتساؤل ما يحتاج إلى مواجهة صعبة، تعيد ترتيب المداخل والمراحل حتى تتضح المعالم، سواء بالنسبة لاحتمالات التشابه والخلاف، أو بالنسبة لنوعية التفاعل، أو بالنسبة لمخاطر الخلط والتداخل.

هذا هو بعض أهداف هذه الدراسة

منذ أصيب الكائن البشرى بمحنة غلبة "الوعي المعقلن" (3) "ومسئوليته، تصور أنه امتلك وسائل تخطيط مستقبله، فراح يتدخل في مسيرة حياته، فمسير نوعه، تدخلنا منحازا غير منتظم. ومن ذلك أن تزايد ترجيحه، وبخطى عملاقة، لذلك الجانب الكمي "الإنتاجي" من الوجود البشرى، على نحو نتج عنه تضخم في ناحية سطحية من الظاهرة البشرية دون سائر كليتها، تضخما يكاد يهدد بالانقراض (4) وقد ترتب على ذلك أن الانسان في محاولته لتحقيق التوازن بترجيح "الجانب الآخر" من الوجود، ليكتمل، أصبح عليه أن يتجاوز هذه الوصاية ليخترق ما فرضته من قيود (كمية، ومغترية) على باقى مستويات وجوده، وهو إذ يفعل ذلك يكتشف أن عليه أن يصارعها (الوصاية) صراعا مهّدا بالإخفاق، الذى كثيرا ما يتجلى فى شكل ما يسمى اضطراب نفسى قد يصل إلى درجة مايسمى "الجنون".

نحن لا نعرف تحديدا كيف حل تاريخ التطور الحيوى ما يقابل هذه المشكلة المتحدية، ولكننا نرجح أن افتقاد ما قبل الإنسان لهذا النوع من الوعي المتدخل، قد أتاح الفرصة أن تعمل قوانين الحياة بشكل أقرب إلى التوازن الكلى، على نحو ضيق الهوية الواجب اجتيازها عند كل طفرة نوعية، ثم إن الإخفاق فى طفرات تاريخ التطور الحيوى كان يعلن عن نفسه بالانقراض أساسا (أو بالتوقف عند نوع بذاته)، كما أن النجاح كان يتمثل فى اطراد النقلات الكيفية على مسار تطور الحياة. لكن الإنسان بعد أن اكتسب الوعي (هذا الوعي) راح يحاول أن يستطلع المسيرة ليحدد معالمها وهو يرجح احتمالات نجاحها، وفى محاولاته تلك: كان عليه أن يتجادل مع تاريخه الأنى وهو الذى يتمثل فى مستويات الوعي الأقدم التى يحتوئها تركيبه حالا، وكانت بعض تجليات هذا الجدل هو ما يسمى الإبداع (كما نعرفه-غالبا: ناتجا رمزيا تشكليا مسجلا) إلا أنه لم ينجح على طول الخط، فظهرت أشكال فشله فى التوقف أو الجمود أو التناثر حتى الجنون.

هذا، ومع تقدم ما يسمى بالعلوم المحكمة (5) على حساب الإبداع المشتمل، زادت الفجوة بين الجزء الكمي الظاهر الطاغى من الوجود البشرى، وبين سائر المستويات الأخرى- مستويات الوعي الكامنة فى منظومات الدماغ الهيراركية(6) ، فأصبحت النقلة من طغيان الوعي المعقلن إلى محاولة التكامل محفوفة بمخاطر متزايدة، وبالتالي أصبح تحقيق الإبداع النمائى الطبيعى مرتبطا ارتباطا تاما بتهديد الجنون.

الامتحان المواجه لإنسان اليوم هو امتحان عبوره - واعيا مشاركا - أزمة تطوره . احتد الوعي بشكل غير مسبوق حتى تجسدت القضية الحيوية لحركة الحياة وانتقلت من "إما أن نتطور أو نقرض"، إلى "إما أن نبدع أو نُجن".

كان من البديهي أن تنشأ حركة مواجهة نافرة تحتج على غلبة هذا "الوعي المعقلن"، فظهرت

هذه الدراسة تقدم

الإبداع والجنون بوصفهما حالتين من "حالات الوجود"، فى مقابل "حالة العادية"، وجميعهما هى حالات متناوبة من خلال الإبداع الحيوى لكل فرد، بدرجات وتجليات مختلفة

تختلف العلاقة بين الإبداع والجنون: من التشابه المتطابق (قبل التمييز إلى أيهما) إلى السلب أو الإبعاد أو التناقض

ضرورة التمييز بين

مستويات الإبداع وتشوهات، حيث يبين الفروق بين كل من الإبداع الفائق، والإبداع البديل، والإبداع الناقص (المبعض)، والإبداع المحبط (اللاإبداع=المجمد)، مع ما يقابلها من مستويات الاضطراب العقلي

مازالنا قضية علاقة

الجنون بالإبداع تمثل تحديا للوعي البشرى (وليس فقط للبحث والمعرفة)

منذ أصيب الكائن البشرى

بمحنة غلبة "الوعي المعقلن" (3) ومسئوليته، تصور أنه امتلك وسائل تخطيط مستقبله، فراح يتدخل فى مسيرة حياته، فمسير نوعه، تدخلنا منحازا غير منتظم

أن الانسان فى محاولته

لتحقيق التوازن بترجيح "الجانب الآخر" من الوجود، ليكتمل، أصبح عليه أن يتجاوز هذه الوصاية ليخترق ما فرضته من قيود (كمية، ومغترية) على باقى مستويات وجوده

أن افتقاد ما قبل الإنسان لهذا النوع من الوعي المتدخل، قد أتاح الفرصة أن تعمل قوانين الحياة بشكل أقرب إلى التوازن الطلي، على نحو ضيق الصوة الواجب اجتيازها عند كل طفرة نوعية

الإنسان بعد أن اكتسب الوعي (هذا الوعي) وأح يحاول أن يستطلع المسيرة ليحدد معالمها وهو يرجح احتمالات نجاحها، وفي محاولاته تلك: كان عليه أن يتجادل مع تاريخه الأني وهو الذي يتمثل في مستويات الوعي الأقدم التي يحتويها تركيبه حالا

مع تقدم ما يسمى بالعلوم المحكمة (5) على حساب الإبداع المشتغل، زادت الفجوة بين الجزء الكمي الظاهر الطامح من الوجود البشري، وبين سائر المستويات الأخرى

الامتحان المواجه للإنسان اليوم هو امتحان عبوره - واعيا مشاركا - أزمة تطوره

احتد الوعي بشكل غير مسبق حتى تجسدت القصة العيوية لحرية الحياة وانتقلت من: "إما أن نتطور أو ننفرض"، إلى "إما أن نجدح أو نُجن".

شاعت في الحياة اليومية قيم "التكمية الاغترابية" (9) بدءاً من الرفاهية كهدف نهائي، مروراً بالمبالغة في الاقتصار على تحريك الوعي أو تخميده بعوامل كيميائية خارجية

أطروحات مضادة منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وقد بلغت ذروتها في الأربعينيات إلى السبعينيات، وذلك مثل الحركة المناهضة لطب النفسى) (7) والمبررة للجنون ضمناً)، ومثل بعض أشكال الأوتوماتية في الشعر (8)، مارين ببعض التجمعات السياسية المتناثرة، والصرخات الاجتماعية الطفلية والنكوصية المجهضة. وقد أخفقت أغلب هذه الحركات المضادة من خلال اختبار الزمن، (بدأ إعلان الإخفاق من أواخر السبعينيات ثم الثمانينيات وهو ما زال يزداد في معظم المجالات..). كاد هذا الإخفاق يصبح مبرراً لتمادى اغتراب الإنسان اندفاعاً إلى الجانب الآخر، على حساب جدل تطوره ونوعية وجوده.

في محاولة أخرى تواترت أشكال الإبداع التفرغى التطهيري!! (التسكيني)، والإبداع الجمالي (والتجميلي)، وماشابه، على نحو أدى وظيفة توازنية تهيئية، لكنها لم تكن كافية لكبح طغيان الوعي المعقلن، بل لعلها أجلت المواجهة، بل كادت تعطل المسيرة.

كذلك شاعت في الحياة اليومية قيم "التكمية الاغترابية" (9) "بدءاً من الرفاهية كهدف نهائي، مروراً بالمبالغة في الاقتصار على تحريك الوعي أو تخميده بعوامل كيميائية خارجية سواء كانت عقاقير حديثة يروجها الطب النفسى الميكانيكى، أم كانت مخدرات ومنشطات مسئولة عن تمادى ظاهرة الإدمان، أم كانت تفسيرات سطحية لنصوص مقدسة رائعة، المفروض أنها ملهمة أكثر منها وصية مجمدة.

هكذا أصبحت الحاجة ماسة إلى أطروحة محيطية (لا عكسية ولا بديلة) تستوعب النقيضين لتحقيق التوازن الحركى الجدلى الدافع لاستمرار المسيرة واضطراد التطور، وهو ما أسميناه . هنا - الإبداع الفائق (أنظر بعد)، الذى يمكنه أن يحتوى المكاسب البشرية الكمية المتحدية بوصفها أدوات، ليخدم بها كلية الوجود البشرى، من أجل استمرار حركته المتنامية نوعياً.

غير أن هذا النوع من الإبداع، مع وجود هذه الفجوة الناتجة عن فرط الاغتراب، قد بدا نوعاً أكثر خطراً، وأشد صعوبة، وأزعج إرغاباً،، ذلك لأنه يتطلب المخاطرة بتثييط منظومات الوعي: الأثرى، والطفلى، والفج، والبدائى، دون أى ضمان لعدم غلبته أو التوقف عنده، بمعنى أنه لى يكون الإبداع إبداعاً على هذا المستوى، فلا بد أن يخترق مرحلة الجنون بشكل أو بآخر. وقد ترتب على ذلك، وعلى الخوف من ذلك، أن ظهرت أشكال مجهزة ومختلطة، من الإبداعات المختلفة، حتى لو كان بعضها أصيلاً جزئياً، أو بدايةً، مما زاد الحاجة إلى مواكبة نقد مسئول مبدع طول الوقت.

هوامش

- [1] هذا هو الكتاب الثانى باسم "جدلية الجنون والإبداع" نشرت صورته الأولى فى مجلة فصول- المجلد السادس - العدد الرابع 1986 ص (30 - 58) وقد تم تحديثها دون مساس بجوهرها، وهو الفصل الثانى من كتاب "حركية الوجود وتجليات الإبداع" الصادر من المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة، والكتاب يوجد فى طبعته الأولى 2007 بمكتبة الأنجلو المصرية، وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحّة النفسية شارع 10، وفى مؤسسة الرخاوى للتدريب والبحوث: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضاً حالياً بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net، وهذه هى الطبعة الثانية بعد أن قُسم إلى ثلاث كتب أضيف إليها ما جدّ للكاتب بين الطبعتين، وهذا الكتاب هو الثانى.

- [2] يحيى الرخاوى: "دراسة فى علم السيكوباثولوجى" منشورات جمعية الطب نفسى التطورى سنة 1979

- [3] تستعمل كلمة "الوعي" خلال هذه الدراسة بمعان مختلفة لا يظهرها إلا السياق، وقد أضفت صفة "المعقلن" فى هذه المراجعة لتفيد أمرين: الأول: أن تحدد مستوى هذا

أصبحت الحاجة ماسة إلى
أطروحة محيطية (لا محسوبة ولا
بديلة) تستوعب النقيضين
لتحقق التوازن العرشي
الجدلي الدافع لاستمرار
المسيرة واطتراد التطور

لكنى يكون الإبداع
إبداعاً على هذا المستوى،
فلا بد أن يتخرب مرحلة الجنون
بشكل أو بآخر

لكنى أستعمل كلمة الوعى
هنا. مبدئياً. بمعنى تركيبى
محدد؛ فهى تعنى أية:
"منظومة بنيوية، متناغمة فى
مستوى بذاته، تصبغ كل
نشاط المخ وحركية محتوياته
بصبغتها وقوانينها على كل
المستويات، كل فى موقعه
من تطور ودورات النشاط،
وتبادل التنظيم"

أنبه إلى رفضي للاستعمال
الشائع لكلمات مثل اللاوعى،
والاشعور، هذا وقد تطور
معدى مفهوم الوعى بعد
ذلك حتى عدلت عن الاكتفاء
بأن يكون الوعى بمثابة وساد
للوظائف الأخرى

أعطيت الحركة المناهضة
للطب النفسى قيمة إيجابية
مبالغاً فيها لما هو "جنون".

أقصد هنا بالأوتوماتية
المعنى الذى يقول ".. فلا
يكون ثمة انتباه أثناء
الكتابة إلا إلى دفق الكلمات
النابع عن اللاوعى .."

الوعى المعنى هنا بالمعنى الشائع والمرادف لما هو
المستوى الظاهر للمعرفة الشعورية حيث يطلق عليه أحياناً:
الشعور، والثانى: أن نشير إلى تضخم دور المخ الحسابى
الرمزى الممثل أساساً فى نشاط نصف الدماغ الكروى الطاغى:
الأيسر فى الشخص الأيمن.

لكنى أستعمل كلمة الوعى هنا - مبدئياً - بمعنى تركيبى
محدد؛ فهى تعنى أية: "منظومة بنيوية، متناغمة فى مستوى
بذاته، تصبغ كل نشاط المخ وحركية محتوياته بصبغتها
وقوانينها على كل المستويات، كل فى موقعه من تطور
ودورات النشاط، وتبادل التنظيم"، وعلى ذلك فكلمة الوعى
هنا لا تشير بالضرورة إلى إدراك معرفى أو حسى فى حالة
اليقظة، فثم "وعى النوم" و "وعى الحلم" و "وعى اليقظة".
من هذا المنطلق أنبه إلى رفضي للاستعمال الشائع لكلمات
مثل اللاوعى، والاشعور، هذا وقد تطور عندى مفهوم الوعى
بعد ذلك حتى عدلت عن الاكتفاء بأن يكون الوعى بمثابة
وساد للوظائف الأخرى، ذلك أنه ليس أرضية لمحتوى غيره،
بقدر ما هو متداخل فاعل طول الوقت على مستويات متعددة
متداخلة ومتبادلة ومتجالة معاً.

- [4] برغم مرور الفكر التطورى (الدارونى بوجه خاص)
بهزة نابغة من سطحية المنهج الذى يبحث عن أدلة مباشرة،
وحلقات مفقودة، فإن تاريخ الحياة، والقياس الموازى،
وعلم التشريح المقارن، وعلم الأجنة المقارن، كلها تحذر
من التمداد فى الاستسلام لآثار هذه النكسة الجديرة بأن
تعوق الفكر البشرى وهى تظلم بصيرته كلما أظلم ضيق
المنهج وتهافتت سطحيته يبدو ذلك مثلما حدث سابقاً حين
شوه مندل ووايزمان فكرة وراثية العادات المكتسبة.
الدراسة الحالية مازالت تستند مباشرة إلى الفكر التطورى
الحيوى على مستوى النوع، وعلى مستوى الفرد، وعلى مستوى
الدورة اليومية، ثم على مستوى المسار الإبداعى (انظر
أيضاً: الكتاب الأول: "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع").

exact sciences - [5]

- [6] والنوعية المنحاة جانباً حتى كُئنت

Antipsychiatry - [7] أعطت الحركة المناهضة للطب
النفسى قيمة إيجابية مبالغاً فيها لما هو "جنون". وعلى
الرغم من أن هذه الحركة تحمل فكراً مهماً من حيث المبدأ،
إلا أن عدم تحديد مرحلة الجنون التى تدافع عنها (حتى
لايتمادى الجنون) وهجومها غير المنظم على "كل" الوسائل
الفيزيائية، والكيميائية اللازمة لضبط فرط جرعة التنشيط
الداخلى العشوائى- هذا وذاك قد أديا إلى إخفاق نتائجها
العملية إخفاقاً كاد يهز حتى الأفكار الصحيحة التى أسست
عليها توجهها. وقد يلاحظ القارئ فى هذه الدراسة ما هو
دفاع عن الجنون، لكنه لا بد أن يكتشف التأكيد المتكرر على
أن الدفاع إنما ينصب على بدايات الجنون بما يسمح
بإمكانية تحويل المسار إلى الإبداع، وليس على ترجيح
مزايا خاصة للجنون المستتب.

- [8] أقصد هنا بالأوتوماتية المعنى الذى يقول ".. فلا
يكون ثمة انتباه أثناء الكتابة إلا إلى دفق الكلمات
النابع عن اللاوعى .." كذلك هى: "لم تكثر بأن تحقق
توازناً بين الأوتوماتية وصفاء الذهن، أو بعبارة أخرى لم
توفيق بين نتائج العقل الباطن وتحكم العقل الواعى"،
انظر: نعيم عطية: "الأوتوماتية فى الشعر السيرىالى" ص
155-161 المجلد الأول- العدد الرابع (1981) مجلة فصول.

- [9] أعنى بالتكمية الاغترابية alienated
quantification أن يصبح معيار التقدم هو الوفرة فى الكم
أساساً أو تماماً (-بما فى ذلك اغتراب الرفاهية وقهر
الاستهلاك)

شبكة العلوم النفسية العربية
نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2019 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعها الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الضج... 61 عاما من التواصل "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

شاركونا أعمالنا على صفحاتكم للتواصل الاجتماعي....

معا يصل صوتنا ومعكم نذهب أبعد ...

معا نرقى بانساننا، فترقى اوطاننا، وترقى امتنا

"نحو لياقة نفسانية أفضل لحياة طيبة"

الصفحة العلمية للدكتور جمال التركي

تسجيل الاشتراك

www.facebook.com/turky.PsyFitness

مؤسسة العلوم النفسية العربية

جائزة " قتيبة شلبي " لشبكة العلوم النفسية العربية للعام 2019

تتشرفه شبكة العلوم النفسية العربية بإطلاق اسم:

" البروفيسور قتيبة شلبي "

(الطب النفسي، العراق / أمريكا)

على جائزتها للعام 2019 المخصصة للأعمال العلمية في الطب النفسي

تقديرًا لمسيرته العلمية المميزة

واعترافًا لما قدمه من خدمات جليلة للطب النفسي الشرعي على المستوى العالمي

دعوة لتقديم الترشيحات للجائزة

الترشح للجائزة من بداية من 01 جانفي 2019 الى 30 نوفمبر 2019

شروط الترشح

www.arabpsynet.com/Prizes/Prize2019/APNprize2019.pdf

ارتباطات ذات صلة

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com/arabpsynet.php?p=2>

دليل جائزة شبكة العلوم النفسية على الفيس بوك

<https://www.facebook.com/Arabpsynet-Award-289735004761329/?ref=bookmarks>